النقد الموضوعاتي

د.محمد السعيد عبدلي
جامعة البليدة . الجزائر

1 . واقع النقد الموضوعاتي:

برغم الإمكانات المهمة التي يوفرها المنهج الموضوعاتي لدراسة النص الأدبي واستكشاف بنياته الفنية ودلالاته الفكرية فإن النقد الأدبي في البلاد العربية لم يلتفت إليه بالشكل الصحيح وبالقدر الكافي، ويعود سبب هذا الوضع في نظرنا، إلى أمرين:

الأمر الأول هو تجذر الممارسات النقدية "الموضوعية"[1] الكلاسيكية في البلاد العربية منذ عشرات السنين؛ حيث حضرت في تلك الدراسات مضامين الأعمال الأدبية، وغابت منها أدبيتها، التي وحدها تميز النص الأدبي عن بقية النصوص العلمية بشكل خاص، والمعرفية بشكل عام.

أما الأمر الثاني، فهو الجهل الذي يكاد أن يكون تاما بهذا المنهج، وبالدراسات التطبيقية التي تم إنجازها وفق إجراءاته، أو وفق توجهاته الفكرية والفلسفية بشكل عام في البلدان الغربية؛ وذلك بسبب غياب ترجمة نماذج من الأعمال النقدية التي تم إنجازها وفق إجراءات هذا المنهج أو وفق توجهاته الفكرية العامة، برغم أن كتاب "جماليات الفضاء" لغاستون باشلار قد نقله "غالب هلسا" إلى اللغة العربية منذ عدة سنوات تحت عنوان "جماليات المكان"، وأعيد طبعه عدة مرات، كانت طبعته الخامسة في سنة ألفين.

وقد يعود سبب عدم توظيف ما جاء في هذا الكتاب المهم توظيفا سليما وفعالا في البلاد العربية إلى كونه لا يحمل أية إشارة إلى علاقة محتواه بالمنهج الموضوعاتي؛ لا في مقدماته الثلاث، ولا في متنه الرئيسي. مما رسخ في الأذهان أن الكتاب هو دراسة لأنواع المكان وتفاصيله.

المنارة للاستشارات

ولعل أول من وقع في هذا الفهم، مترجمه نفسه، الذي صرح في المقدمة الثالثة التي وضعها للكتاب بعد مقدمة المؤلف ومقدمة "إتيان غالسون" قائلا: ((ويثير هذا الكتاب، أو هو قد أثار عندي على الأقل، فكرة دراسة جماليات المكان العربي.))[2] ثم يعطي مثالا يأمل أن يجسد به هذه الفكرة، وهو دراسة الأطلال في الشعر العربي.

ولعل سببا آخر يضاف إلى هذه الأسباب، وهو أن كتب باشلار الكثيرة، والتي ترجم عدد منها إلى اللغة العربية، لم يتم تناولها في إطار الفلسفة الظاهراتية التي تزعمها إدموند هوسرل. وهي الفلسفة التي اتخذ باشلار منها قاعدة لتفكيره وممارساته النقدية التي مهد بها الطريق لتأسيس المنهج الموضوعاتي وتطويره على أيدي جان بيار ريشار وجان بول ويبر بالخصوص.

إن هذه الأسباب جعلت الوعي بهذا المنهج وبخصوصياته، تتأخر في البلاد العربية إلى بداية ثمانينيات القرن الماضي، حيث بدأت محاولات التعرف عليه وفهم توجهاته وإجراءاته تظهر في سوريا وفي المغرب. وقد تمكن كل من سعيد علوش وحميد لحمداني من حصر جملة منها والتعريف بها؛ الأول في كتابه "النقد الموضوعاتي"، والثاني في كتابه "سحر الموضوع".

وهكذا نجد في الكتابين تناولا لكتاب عبد الكريم حسن "الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب". وهذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه تمت مناقشتها بفرنسا في عام 1980 ونشرت في عام 1983. وتناولا الكاتبان أيضا رسالة ماجستير أعدتها "كيتي سالم"، وهي بعنوان "القلق في قصص جي دي موبسان"؛ وكذا رسالة ماجستير أخرى أعدها "عبد الفتاح كيليطو" تحمل عنوان "موضوعاتية القدر في روايات مورياك".

زيادة إلى هذا، اشتمل كتاب سعيد علوش على جملة من النصوص المترجمة لبعض النقاد الموضوعاتيين، في نظره، وبالخصوص منهم جان بيار ريشار. مع الإشارة إلى أن تلك الترجمات لم تتم بكيفية تمكن القارئ من الإمساك بمقاصد

المنارة للاستشارات

أصحابها، مما سييسر . لو توفر ذلك . الاستفادة منها بالقدر الذي كانت تصبو إلى تحقيقه مجهودات المترجم بطبيعة الحال.

نضيف إلى هذين الكتابين، صدور ثلاثة كتب أخرى: الأول لعبد الكريم حسن بعنوان "المنهج الموضوعي". وقد صدر في عام 1988، وتضمن مادة متنوعة وغنية، تعتبر بحق مرجعا مهما لكل قارئ بالعربية يهتم بالمنهج الموضوعاتي، إذ قدم فيه صورة عن منابع الفلسفة الظاهراتية التي تزعمها هوسرل، واستقى منها باشلار والنقاد الموضوعاتيون عموما أصول هذا المنهج. ثم أتبع المؤلف ذلك بنصوص كثيرة توزعت على فصول الكتاب، أبرز فيها مفاهيم المنهج وتوجهاته حسب ما استقرت عند جان بيار ريشار وأعلن عنها في إصداراته النقدية العديدة، وفي اللقاءات العلمية المختلفة، منها الندوات والمحاضرات والحوارات الصحفية والإذاعية.

إلى جانب كل هذا، فقد ضمن عبد الكريم حسن كتابه نماذج من النصوص التطبيقية لجان بيار ريشار؛ فجاء الكتاب بفضل ذلك عبارة عن ترجمة لمجهودات هذا الناقد، مما جعل مهمة المؤلف تكاد تنحصر في ترتيب المادة وعرضها، مع إغنائها بالشروح والتعليقات توزعت على متن الكتاب وهوامشه.

أما الكتاب الثاني فهو من تأليف محمد عزام بعنوان "المنهج الموضوعاتي". وقد صدر في نهاية القرن الماضي عن اتحاد الكتاب العرب بسوريا. والكتاب حسب اعتقادنا ليست له علاقة واضحة بالمنهج الموضوعاتي.

والكتاب الثالث هو لعبد المفتاح كيليطو بعنوان "الحكاية والتأويل"، وتناول فيه مجموعة نصوص من التراث الأدبي العربي، فقام بتحليلها وكشف النظام الداخلي المنسجم الذي تقوم عليه. وهو نظام ينطلق أو يتمحور حول حدث أو صورة أو معنى معين واحد. ويتابع القارئ هذه الدراسات بكثير من المتعة والإعجاب، ولكنه إذا حاول أن يتعرف على المنهج الذي بنى عليه الناقد تحليلاته الأدبية، أو على أي إجراء واضح يكون سار عليه لإنجازها، فإنه لا يعثر على أية إشارة إلى ذلك. وهكذا بدت تلك القراءات حرة لا يضبطها نظام معين ولا تسعى إلى غايات محددة.

المنارة للاستشارات

هذا عن الكتب، أما عن كيفية تعامل الدراسات الجامعية مع المنهج الموضوعاتي، فتهمنا منها رسالة دكتوراه عبد الكريم حسن الموسومة بـ "الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب"، ورسالة ماجستير لمسعودة لعريط "قصص الأطفال في الجزائر: دراسة موضوعاتية".

اعتمد عبد الكريم حسن في دراسته على الإحصاء لاكتشاف الموضوع الرئيسي والموضوعات الفرعية في شعر السياب، بحيث يكون الموضوع الرئيسي . حسبه . هو الموضوع الذي تتردد مفرداته في النص أكثر من تردد مفردات الموضوعات الأخرى، وتشكل هذه الأخيرة بعد ذلك الموضوعات الفرعية للموضوع الرئيسي؛ وهذا ما يوضحه في قوله: ((إن تحديدنا للموضوع يعتمد على قاعدته اللغوية في العمل الأدبي الذي ندرسه، وليس على دراسة هذا العمل الأدبي أو تحليله. فالموضوع هو مجموعة المفردات التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة.))[3] وبما أن الموضوعات تختلف عند عبد الكريم حسن بين رئيسية وفرعية، فهو يضيف هذا التوضيح للتمييز بينها قائلا: ((والموضوع الرئيسي هو الموضوع الذي تتردد مفردات عائلته اللغوية بشكل يفوق مفردات العائلات اللغوية الأخرى... [و] الموضوع الرئيسي هو الذي يفرز بقية الموضوعات ويولدها بشكل آلي.))[4]

أما اعتماد المؤلف على العد . وهو إحصاء حسب رأيه . لتحديد الموضوع الرئيسي، فهو إجراء تنقصه الفعالية بسبب عدم ثبات دلالة اللفظ من موقع في النص إلى آخر، وكان هذا الإجراء قد استهوى جان بيار ريشار قبله وانجذب إليه، ولكنه تفطن إلى عجزه على تحديد الجذر الرئيسي أو النواة الرئيسية للنص، قائلا: ((فتكوين معجم للترداد، هو افتراض لثبات دلالة الكلمات من مثال إلى آخر، إلا أن هذا المعنى يتنوع في الحقيقة، ويتعدل من تلقاء ذاته في نفس الآن، حسب أفق المعاني التي تحيط به وتعضده وتجعله موجودا.))[5] ويؤكد رولان بارت هذا التأثر الذي تحدثه المعاني في بعضها بعضا، فيقول: ((واللغة نظام يشبه لعبة الشطرنج، هنا على رقعة المربعات، القيمة المتبادلة لقطع الشطرنج محصورة بوظيفتها على الرقعة.

المنارة للاستشارات

وفي اللغة أيضا، كل عبارة لا ترتدي قيمتها الخالصة إلا في معارضتها لسائر العبارات.))[6]

وهذا التوضيح من بارت الذي يتفق مع ما ورد في كلام ريشار حول مسألة تأثير المعاني المتجاورة في بعضها بعضا، يعطي الحق لتحفظ ريشار من فعالية عملية الإحصاء لتحديد المعنى الغالب في نص من النصوص، ومن ثم تحديد موضوعه الأساسي، فيقول: ((وعلى الرغم من أنه لا جدال فيما تقدمه الإحصائيات، إلا أنها لا يمكن أن تقود إلى حقائق نهائية.))[7]

وهكذا جاءت دراسة عبد الكريم حسن لشعر السياب دراسة للموضوع، حسب منهجية خاصة، وليست بحثا موضوعاتيا حسب ما مارسه ريشار وجان بول ويبر وغيرهما من النقاد الموضوعاتيين في أعمالهم النقدية الكثيرة؛ وهذا ما يعترف به عبد الكريم حسن نفسه حين يقول: ((فقد تخيرنا الاستمرار في العمل حتى استقام لدينا منهج في البحث العلمي... ونحن لا نشير إلى ذلك إلا لكي نؤكد أننا لم نتلمس خطى منهج محدد سلفا.))[8]

وقد سارت رسالة مسعودة لعريط في الطريق نفسها التي سارت فيها دراسة عبد الكريم حسن، فكان مصير هذه كمصير تلك، لاعتمادها على العد لتحديد الموضوعات "الرئيسية" والموضوعات "الفرعية"، فجاءت كسابقتها: استكشافا ووصفا وتحليلا "للموضوع"، بدل البحث عن النواة أو الجذر الذي تولد منه النص، حسب ما يهدف إليه المنهج الموضوعاتي، لكون ذلك هو الأساس الذي تقوم عليه الدراسات التي تعتمد عليه؛ وهذا برغم أن المقدمة النظرية للرسالة توحي من حين إلى آخر بإمكانية تفادي هذا الانحراف في المنهج.

والنتيجة المشتركة التي اجتمعت حولها الرسالتان أنهما جاءتا حديثا عن "الموضوع" وتحليلا له، وغاب منهما البحث الموضوعاتي، إذ لم يحضر هذا إلا في بعض النوايا المعلنة؛ مع الإشارة إلى أن اعتماد الرسالة الثانية على الرسالة الأولى كان اعتمادا واضحا، وقد تمت الإشارة إليه بوضوح في مواضع منها[9].

المنارة للاستشارات

إلى جانب هذه الكتب والرسائل فقد صدرت في البلاد العربية بعض المقالات النقدية حول الموضوعاتية، دون أن تتمكن من تحقيق إلمام صحيح وواضح بهذا المنهج وبإجراءات النقدية، نذكر منها:

1 . ميشال كولو، الموضوع من منظور النقد الموضوعاتي.[10]

2 . الطاهر روابنية، القراءة الموضوعاتية للنص الأدبي.[11]

3 . محمد عزام، النقد الموضوعاتي.[12]

ما نستخلصه من هذه الجهود هو أن النقد الموضوعاتي ليس له حاليا في ساحة النقد الأدبي في الوطن العربي حضور واضح يميزه عن النقد الذي يتناول موضوعات النصوص الأدبية من وجهة نظر اجتماعية وسياسية ونفسية، إذ يتم التعامل مع الموضوع والموضوعاتية على أساس أنهما مصطلحان لمفهوم واحد. ولذا نجد أنفسنا مطالبين بالقيام بتحديد الفروق بين الموضوع والموضوعاتية كخطوة أساسية أولى تسمح بها طبيعة هذه الدراسة[13]:

2 . بين الموضوع والموضوعاتية:

2 .1 . الموضوع (Le thème) في المعاجم العربية والفرنسية:

2. 1.1 . المعاجم العربية:

تناولت المعاجم العربية القديمة منها والحديثة مصطلح الموضوع بالشرح والتحديد، مستفيدة من بعضها بعضا تارة، ومن المعاجم الغربية تارة أخرى.

فقد جاء في "لسان العرب" لابن منظور تحت مادة "وضع" قوله هذا الذي له اتصال بسياق دراستنا: ((وضع، الوضع: ضد الرفع، وأنشد ثعلب بيتين فيهما: "موضوع جودك ومرفوعه"، عنى بالموضوع: ما أضمره ولم يتكلم به، والمرفوع: ما أظهره وتكلم به.)) [14]

إذا كان ثعلب في الشعر المشار إليه يتكلم عن جود ممدوحه فهو يرى فيه جانبين أحدهما معروف ويتداوله الناس، والآخر مضمر لا يعلمه سوى الخاصة والأقربون.

المنارة للاستشارات

وإذا تأملنا بدورنا معاني النص الأدبي نجدها لا تخرج عن هذا، فهي معاني مباشرة سطحية تعبر عنها لغة النص في استعمالاتها العادية، أي لمّا تكون ناقلة لرسالة من مخاطب نحو متلق. ثم إن النص، كونه رسالة أدبية، هو مفهوم يحمل معاني جمالية عميقة تميزه من النصوص المعرفية والعلمية، ولذا فهو يتطلب من القارئ امتلاك كفاءة تلق عالية تمكنه من التوصل إلى تلك المعاني الجمالية وخلقها.

ومن المعاني التي ذكرها ابن منظور أيضا تحت هذه المادة، قوله: ((تواضع القوم على الشيء: اتفقوا عليه، والمواضعة: المناظرة في الأمر. والمواضعة: أن تواضع صاحبك أمرا تناظره فيه.))[15] تشترك هذه المعاني في دلالتها على نتاج فكري توصلت إليه عدة أطراف بعد نقاش جرى بينها.

بعد هذا ننتقل إلى المعاجم العربية الحديثة لنتفحص المعاني التي جمعتها حول هذه المادة ونستخرج منها ما يهم دراستنا؛ فنجد فيها تطويرا واضحا يتمثل في الجهد الواضح المبذول لبلوغ الدقة المطلوبة من جهة، مع توسيع مجال الأمثلة المعطاة وتنوعها للإحاطة بالتفاصيل من جهة ثانية.

جاء في "محيط المحيط" لبطرس البستاني: ((موضوع العلم: هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية، كبطن الإنسان لعلم الطب، فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض. وكالكلمات لعلم النحو، فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء. وموضوع الوعظ عند الوعاظ هو الآية أو المادة التي يبنون عليها الوعظ.)) [16]

يأخذنا هذا التعريف إلى نوع آخر من معاني مصطلح "الموضوع"، تنحصر بالخصوص في البحث العلمي بمجالاته المتنوعة، من طب ولغة ودين، مما يجعل هذا التعريف يأتي توسيعا للتعريف السابق، بشكل زاد للمادة الأصلية موضوع الشرح، توضيحا وتنويعا للمعاني التي تدخل في مجالها.

وفي معجم "الرائد" لجبران مسعود وردت جملة من المعاني حول مادة "وضع"، يمكن اعتبارها تلخيصا لما جاء حول المادة في لسان العرب ومحيط المحيط، فهذه

المنارة للاستشارات

المعاني تشمل الموضوع الذي يدور حوله الحديث بين المتحاورين، حيث جاء فيه: ((الموضوع: ج. مواضيع، موضوعات: المادة التي يبني عليها الكاتب أو الخطيب أو المحدث كلامه. المادة التي يبحث العلم عن عوارضها.))[17] يمكن أن نجمع هذه المعاني التي وردت في هذا التعريف في التعبير الآتي: الموضوع هو المادة التي يشتغل عليها الفكر عن طريق الكلام أو الكتابة بغرض التفحص والتقصي.

ويقدم جبور عبد النور في "المعجم الأدبي" تعريفا للموضوع لا يختلف كثيرا عن التعريفات السابقة فيقول: ((موضوع الكلام: المادة التي يجري عليها البحث شفويا أو خطيا، ومن ذلك قولنا: موضوع الرواية، موضوع النقاش، موضوع المحاضرة.))[18]

أما في معجمه العربي الفرنسي "معجم عبد النور المفصل" فيقدم شروحا عامة، يدخل فيها كل ما يعكس نتاجا فكريا، سواء كان عن طريق المشافهة أم الكتابة؛ دون أن يرى التباسا في جعل مصطلح موضوع في مقابل خمسة مصطلحات باللغة الفرنسية، فيقول:

((موضوع: Sujet, Objet, Question, Thème, Matière.

موضوع كتاب: contenu d'un livre.

موضوع المناقشة: point de discussion.)) [19]

فالموضوع في الحالة الأولى يقابل: thème، ويقابل أيضا المصطلحات الأربعة الأخرى: sujet, matière, question, objet. وهذه المصطلحات الأربعة برغم علاقتها القوية بالموضوع، إلا أنه يوجد في اللغة العربية ما يقابلها من مصطلحات، وهي على التوالي: مادة، مسألة، شيء، وذات. أما جعله "موضوع" في مقابل « contenu » في قوله: "موضوع كتاب: contenu d´un livre" هو تقابل غير دقيق أيضا، لكون الموضوع أشمل وأعم من كلمة مضمون التي تقابل كلمة «contenu» في الفرنسية؛ إذ يمكن أن تشترك كتابات كثيرة في موضوع واحد ولكنها ستختلف في مضمونها؛ وكمثال على ذلك اختلاف مضامين كتابات الطلبة

المنارة للاستشارات

أو غيرهم، حول موضوع واحد في العلوم الإنسانية. أما جعله "موضوع" مقابل «point» في الحالة الثالثة، عند قوله: "موضوع المناقشة: point de discussion"، فهي ترجمة تتقابل بصورة أفضل في رأينا، مع مصطلح «sujet»، فيكون: "موضوع المناقشة: sujet de discussion"، بدلا من: "موضوع المناقشة: point de discussion"، مع الإشارة إلى أن مفهوم "النقطة" (le point) كثيرا ما يرد أيضا في الكتابات العربية، وهو يعني عنصرا محددا من جملة عناصر تكوّن موضوعا ما.

ويفضل رشيد بن مالك في معجمه "قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص" استعمال مصطلح "تيمي" المعرب عن المصطلح الفرنسي «Thématique» والمصطلح الإنجليزي «Thematic»، فيقول: ((يستعمل "تيمي Thématique" في بعض الأحيان للدلالة على المضمون الدلالي للنص؛ يعني الموضوع الذي يتطرق له الكاتب.))[20] فهذا التعريف في رأينا لا يساهم في حل مشكلة المصطلح بقدر ما يزيدها إبهاما وتعقيدا، ذلك لأن مصطلح تيمي لا يعبر عن كم مفهومي واحد ومحدد عند السيميائيين أنفسهم، فهو عند "أ.ج .غريماس A.J.Greimas" و"ج. كورتاس J.Courtes" يحمل مفهوما قريبا جدا من مفهوم مصطلح "الغرض"، (Motif)، حيث يكون الموضوع تجسيدا أدبيا واحدا من جملة تجسيدات كثيرة لا حصر لها للغرض الواحد نفسه[21].

يبدو إذن أن مفهوم الـ "تيمي" (Thématique) عند رشيد بن مالك هو نفسه مفهوم الموضوع "تيم" (Thème) عند غيره من السيميائيين وغير السيميائيين؛ وهذه إشكالية أولى يفرزها تعريف رشيد بن مالك. أما الإشكالية الثانية فهي لجوؤه إلى التعريب بدل الترجمة، ذلك لأن مصطلحي (Thème) و(Thématique) لهما في العربية ما يقابلهما من مصطلحات وهما: الموضوع والموضوعاتية. وإن كانت هذه الترجمة تواجهها بعض الاعتراضات المتمثلة في عجزها عن تقديم حل لإشكالية وجوب التمييز بين المصطلحات الفرنسية: Objet, Motif, Thème,

المنارة للاستشارات

Sujet, بسبب كون الموضوع يقوم في كثير من الحالات كمقابل لجميع هذه المصطلحات المختلفة. والتوضيح الممكن حول هذا الاعتراض هو أن أغلب هذه المصطلحات لها ما يقابلها في اللغة العربية كما سنرى. ثم إن استعمال رشيد بن مالك لمصطلح "تيم" في مقابل Thème ومصطلح "تيمي" في مقابل Thématique لم يحل بهما هذه المشكلة، وإنما أضاف إلى اللغة العربية المثقلة اليوم بالمصطلحات الغامضة والعقيمة مصطلحين آخرين لم نجد في الشروح التي وضعها لهما ما يمكننا من الإقرار بأهميتهما[22].

2.1.2 . المعاجم الفرنسية:

اهتمت القواميس الفرنسية بمصطلح الموضوع Le thème، وراحت تتبع تطوراته بداية من جذوره الأولى في الحضارتين اليونانية واللاتينية.

وهكذا، جاء في قاموس "لوروبير: المعجم التاريخي للغة الفرنسية" أن "موضوع" (thème) ، ينحدر من اللاتينية من كلمة "تيما" (thèma) التي تنحدر إليها بدورها من اليونانية، وهي مشتقة من الفعل "وضع: تيتيني tithènai"، والتي تدل على الشيء الذي نضعه، ومن هنا أصبحت الكلمة تدل على: مبلغ من المال، صدقة، جذر كلمة، موقع النجوم عند الولادة، وفي الأخير على موضوع خطبة. وفي مدارس القرون الوسطى أصبحت هذه الكلمة تعني الشيء المدروس، الاقتراح الذي يتم تناوله من أجل تطويره [23].

وجاء في قاموس "روبير الصغير: معجم اللغة الفرنسية" حول هذه المادة: ((الموضوع Thème، في اللاتينية: تيما thèma، كلمة يونانية، تعني ما هو مقترح، فكرة، اقتراح نقوم بتطويره في خطاب، في مؤلف تعليمي أو أدبي. موضوع خطاب، لكل كاتب موضوعاته الخاصة. الفكرة، المعنى الذي يكوّن موضوع حديث شخص ما، أو مركز انشغالاته، إنه ذلك الذي تنصب عليه الممارسة الفكرية أو العلمية.))[24]

المنارة للاستشارات

ونجد أهم عناصر هذا التعريف في "معجم اللغة الفرنسية" حيث ورد فيه: ((موضوع Thème: الذات، المادة، الاقتراح الذي نتناوله من أجل الدراسة في مؤلف، في خطاب. إنه الأمر الذي يخضع لممارسة فكرية لشخص ما، أو هو الأمر الذي يكوّن أهم انشغالاته.)) [25]

وجاء في "معجم كيبي الموسوعة": ((موضوع، thème: كلمة لاتينية: تيما، thèma: ذات، مادة، اقتراح تتم دراسته، البرهنة عليه، أو توضيحه.))[26]

وأورد قاموس لاروس تعريفات للموضوع متطابقة في كثير من مواضعها، حيث نجد في "لاروس الصغير": ((موضوع، thème: كلمة يونانية: تيما، thèma: وتعني ما هو مقترح. ذات، فكرة، يتم التفكير فيهما لإنتاج خطاب، مؤلَّف. أو يتم تنظيم عمل حولها. موضوع مناقشة.))[27] وإلى هذا التعريف نفسه ذهب معجم لاروس الموسوعي[28].

وفي الأخير يمكن أن نجمع أهم ما ورد في تعريفات المعاجم الفرنسية السابقة لمصطلح "موضوع، thème" في النقاط الآتية:

1 . أصل المصطلح يوناني لاتيني: تيما، thèma.

2 . المصطلح مشتق من الفعل "وضع" الذي يعني: الشيء الذي نضعه.

3 . يدل المصطلح على الفكرة أو الاقتراح الذي يتم تناوله من أجل تحليله وتطويره في خطبة أو نقاش، أو في مؤلف تعليمي أو أدبي.

أما النتيجة التي نخلص إليها من مجموع تعريفات الموضوع التي وردت في مجموع القواميس العربية والفرنسية السابقة على السواء، هي أن هذه المعاجم تعود بأصل المصطلح إلى الفعل "وضع" الذي يقف في مقابل الفعل "رفع"، ويقف الفعل "حط" كمرادف له في اللغة العربية، إذ وردت في هذه المعاجم الأفعال والتعابير الآتية: ((وضع، الوضع: ضد الرفع)) و((وضع الشيء في المكان: أثبته فيه)) و((وضعه: حطه)) و((وضع الشيء: أثبته، خلاف رفعه))، وأيضا: ((وضع، Poser)) و((الشيء الذي نضعه، ce que l' on pose)).

المنارة للاستشارات

بعد الكشف عن المعنى الأصلي لهذا المصطلح، راحت هذه المعاجم تعرض المعاني التي قامت عليه، والتي اكتسبها خلال تطوره في الزمن والمكان حسب مجالات المعرفة التي يتحرك فيها، لتتوصل إلى أن الموضوع هو كل أمر يملك قدرة على جعل الفكر يتخذه مادة يشتغل حولها بغرض التحليل، للكشف عن تفاصيله وعن العلاقات القائمة بين تلك التفاصيل فيما بينها، وعلاقة كل ذلك بالمجال الذي ينتمي إليه، سواء كان فلسفيا، سياسيا، علميا، أو أدبيا؛ وسواء كان هذا العمل الفكري حديثا أم كتابة، فرديا أم جماعيا، أو غير ذلك من مجالات المعرفة الواسعة. ومن هنا نخلص إلى أن الموضوع هو المادة التي يشتغل عليها الفكر عموما، سواء عن طريق الكلام أم الكتابة.

3 . الكشف عن الموضوع:

بعد هذا التحديد لمفهوم الموضوع الذي استخلصناه من مجموعة من المعاجم العربية والفرنسية، يواجهنا أمر آخر مهم، وهو كيف يمكن التوصل إلى تحديد موضوع النص؟

ينبغي أن نشير إلى أن كل نص يقوم مبدئيا على موضوع، سواء كان ذلك النص علميا أم أدبيا. ولكن إذا كان من مستلزمات النص العلمي أن يحصر موضوعه ويقوم بتوضيحه بفضل اتباع منهجية معينة لبنائه، وتوظيف مصطلحات خاصة لتحديده، مع ضرورة انتماء تلك المصطلحات إلى فرع علمي معين؛ فإن الوضع يختلف مع النص الأدبي الذي لا يأخذ موضوعه من مادة واقع الحياة بقدر ما يأخذه من عالم خاص، هو العالم الذي يخلقه الفنان بخياله وبلغته. وبسبب هذه الخصوصية التي تميز موضوع الأدب ومصدره، فإنه لا يمكن التعامل معه بالمقاييس التي يتم التعامل بها مع موضوعات يشكل الواقع مرجعها، أي مع الموضوعات التي تشكل مادة الفكر، حسبما وضحناه أعلاه. ولكن هذا الوضع لا ينفي وجود موضوع للنص الأدبي، فهذا الموضوع موجود تعبر عنه اللغة وهي في مستوى تأديتها لوظيفتها الخطابية المباشرة التي تتجسد من خلال تأديتها لمحتوى رسالة تنتقل من

المنارة للاستشارات

مرسل إلى متلق. وعند هذا الحد يتوقف النص الأدبي عن وظيفة نقله للموضوع أو للمعنى بين مرسل ومتلق، ليفتح بابا واسعا على عالم جمالي لا يرتبط بالواقع إلا بمقدار حاجته إليه لتحقيق جماليته العميقة والمتجددة.

فالحديث عن موضوع النص الأدبي ينبغي أن يفهم أن المقصود منه هو مضمون الخطاب الذي تنقله اللغة في استعمالها العادي بين مرسل ومتلق. إنه مجموع المعاني التي تنقلها اللغة وهي في مستوى تأدية وظيفتها المعجمية. وليس تحديد الموضوع الذي تعبر عنه اللغة في هذا المستوى بالأمر الذي يمكن تحقيقه بنجاح تام، لأن حتى هذه المهمة تبقى دائما مهمة صعبة ونسبية حسب ما يؤكده "جوليان براون" و"جورج يول" مؤلفا كتاب "تحليل الخطاب": ((فالقاعدة المتبعة في تحديد "الموضوع" قلما تأتي صريحة، بل الواقع أن كلمة "موضوع" هي أكثر المصطلحات استعمالا في مجال تحليل الخطاب، وأقلها وضوحا.))[29]، وبناء على "قلة الوضوح" هذه فإن تحديد أية صياغة ما على أنها المعبرة عن موضوع النص، ما هي في الحقيقة إلا تعبير عن موضوع واحد مقترح، من جملة عدة موضوعات أخرى غيره يمكن اقتراحها، وذلك راجع إلى كون النص الأدبي مفتوح لعدة قراءات، كما يوضح مؤلفا كتاب "تحليل الخطاب": ((إنه لإغراض عملية لا يوجد شيء يسمى تعبيرا واحدا صحيحا عن موضوع أي مقطع من مقاطع الخطاب، ستكون هناك دائما مجموعة من الإمكانات نستطيع بها أن نعبر عن الموضوع.))[30] إلى جانب التأكيد الذي يحمله هذا الحديث على الحركية التي يتميز بها الموضوع في النصوص الخطابية عموما، فهي في النصوص الأدبية تكون أكثر جلاء؛ مما يجعل محاولات تحديده هي محاولات مؤقتة؛ إذ هي معرضة دائما للتبديل والتطوير والتعديل.

ويستند هذان المؤلفان لتوضيح إجراءات مقترحهما لتحديد موضوع الخطاب، على ركيزتين: تتمثل الأولى في تحديد مفهومهما للموضوع، فهو في رأيهما: ((ما يتم التعبير عنه أثناء المحادثة.))[31] أما الثانية فهي تتمثل في فكرة تفضيل البحث عن نقطة "الانتقال في الموضوع" بدل البحث عن "ماهية الموضوع". وهكذا جاءت

المنارة للاستشارات

دعوتهما على الصورة الآتية: ((إنه بدلا من توخي الطريق الصعب ومحاولة تحديد "ماهية الموضوع"، فإن الأجدر بنا أن نركز على وصف ما ندرك أنه "انتقال في الموضوع". أي أنه لا بد من وجود نقطة معينة بين مقطعين خطابيين متجاورين ندرك حدسيا أن لهما "موضوعين" مختلفين، ويكون الانتقال عندها من موضوع معين إلى الذي يليه معلّما بعلامة ما. فإذا استطعنا تحديد علامة هذا الانتقال الموضوعي، نكون بذلك قد اكتشفنا قاعدة بنيوية لتقسيم مقاطع خطابية طويلة إلى سلسلة من الوحدات الصغرى لكل منها موضوع مستقل. ويقوم هذا الضرب من المقاربات لتحليل الخطاب على مبدأ أننا لو استطعنا التعرف على حدود تلك الوحدات . حيث تنتهي وحدة وتبدأ أخرى . فلن نكون بحاجة إلى مواصفات مسبقة تحدد موضوع تلك الوحدات. ونتيجة لذلك، يتحول عبء التحليل إلى البحث عن العلاقات الشكلية للانتقال الموضوعي في الخطاب.))[32]

فهذه الطريقة المقترحة لتحديد موضوعات النص بالاعتماد على اكتشاف حدود مقاطعه المختلفة، إن كانت طريقة مقبولة ومغرية من الوجهة النظرية، فهي لا تملك من الأدوات التي تمكنها من الانتقال إلى المستوى العملي إلا الحدس؛ من هنا فهي منفتحة على الأحكام الذاتية التي تترتب عنها نتائج متنوعة تعيدنا إلى نقطة البداية التي تناولناها قبل الآن، وهي التي يعبر عنها المؤلفان أيضا بقولهما: ((يجد المحلل نفسه في الغالب مضطرا إلى الاعتماد على مفاهيم حدسية لتحديد نهاية جزء معين من المحادثة وبداية آخر... مثل هذا النوع من القرارات هو ما يتخذ عادة بالرجوع إلى مفهومنا الحدسي للموضوع، كأن يتوقف أطراف المحادثة عن الحديث عن "المال" لينتقلوا إلى الحديث عن "الجنس". وهكذا يمكن اعتبار مقطع من محادثة وحدة من نوع ما، لأنه يتناول موضوعا معينا.

يتضح إذن أن مفهوم الموضوع هو طريقة يستسيغها حدسنا اللغوي، وتمكننا من وصف ذلك المبدأ الجامع الذي يجعل من مقطع خطابي ما، حديثا "عن" شيء

المنارة للاستشارات

ما، ومن المقطع الموالي حديثا "عن" شيء آخر، ذلك أننا نجد اعتمادا مستمرا على هذا المفهوم في ما ظهر من الدراسات في مجال تحليل الخطاب.))[33]

وبرغم هذا الإلحاح على كون مقطع ما من نص الخطاب يعبر عن موضوع ما، وبأن مقطعا غيره يعبر عن موضوع آخر، مع تدعيم كل هذا بالقول إنه الطريقة التي تتبعها باستمرار دراسات تحليل الخطاب، فهذا الكلام المحكم والمقبول على المستوى النظري لا ينبغي أن ينسينا هذه الحقيقة التي أقرها المؤلفان في كتابهما، والتي نعود لاستحضارها ثانية، والمتمثلة في قولهما: ((إنه لأغراض عملية لا يوجد شيء يسمى تعبيرا واحدا صحيحا عن موضوع أي مقطع من مقاطع الخطاب. ستكون هناك دائما مجموعة من الإمكانات نستطيع بها أن نعبر عن الموضوع. وكما قال تايلر، فإن الموضوع لا يمكن أن يكون إلا إعادة صياغة واحدة ممكنة لسلسلة من الأقوال.))[34]

إذا كان الأمر بهذه الصعوبة الكبيرة لتحديد الموضوعات التي يتناولها الناس في أحاديثهم مع بعضهم بعضا حسب ما رأينا شيئا من ذلك فيما جاء في كتاب "تحليل الخطاب" السابق الذكر، فإن هذه الصعوبة تعتبر من خصائص الخطاب الأدبي، لكونه نصا جماليا تكاد اللغة فيه أن تفقد معانيها المعجمية الثابتة، فلا تستمد دلالاتها إلا من النص الذي تساهم في بنائه، متجاوزة بذلك حالة ثبات معانيها المعجمية إلى خلق معان جديدة؛ ومن هنا تضعف علاقتها بالمرجعية الخارجية التي تقاس عليها معاني خطاب المتحاورين، أو الخطاب العلمي عموما، الذي يحرص دائما على أن تكون علاقته بالمرجعية الخارجية قوية حتى يحقق دقة التبليغ التي تبقي على استمرار التواصل وصحته بين المرسل والمتلقي. وهذا ما يجعل التعريف الآتي الذي أعطاه "ميشال كولو" للموضوع يجد أهميته هنا، يقول: ((يعد الموضوع تقليديا "مادة" يعالجها نص أو خطاب، وتأخذ علاقته معها شكل علاقة تخارجية [كذا]، يمكن تعريفه إذن بصورة مستقلة عن العمل بحسب المراجع الخارجية عنه.

المنارة للاستشارات

الموضوع من وجهة نظر الموضوعاتية هو مجموع المعاني التي يعطيها عمل ما لهذه المراجع.))[35]

ولقد نبه "جان بيار ريشار" (Jean-Pierre Richard) إلى أن الموضوع في النص الأدبي لا يستمد قيمته من ذاته وإنما من النص الذي يشكله ويبنيه ويصنعه؛ إذ يقول موضحا هذه المسألة، ومتخذا الأعمال الأدبية لـ "ستيفان مالارمي" (Stéphane Mallarmé)[36] مثالا عنها: ((إن الموضوعات أو الصور يمكن أن توجد خارج عمل محدد، كما يمكن أن تدرس بذاتها... ولكن هذه الدراسات ليست قيد بحثنا الآن، فما يهمنا ليس أن نعرف كيف ومن أين جاء مالارمي بهذه الصور، ولا ما كانت تعنيه قبل أن يمتلكها. ولكن ما أردناه هنا هو أن نبحث عن المعنى الذي أخذته هذه الموضوعات عند مالارمي، أن نبحث عن القيمة الخاصة التي اكتسبتها في التقائها ببعضها بعض. فإذا استثنينا بعض الحالات الخاصة، نجد أن فرادة التجربة الإبداعية لا ترتبط بمحتواها، وإنما بترتيب وتنظيم هذا المحتوى.))[37]

من هنا تبدو خطورة الانحراف الذي تقع فيه بعض الدراسات الأدبية التي تتخذ مضامين الأعمال الأدبية موضوعات للبحث، إذ تجد نفسها تضع النص الأدبي على قدم المساواة مع النصوص الثقافية والفكرية الأخرى، متناسية بذلك خصوصياته التي تميزه عن تلك النصوص؛ ومن ثم اختلاف مفهوم الموضوع وقيمته حسب اختلاف طبيعة النصوص التي تتناوله، أو تعبر عنه. وهذا ما يوضحه "غريماس" أيضا بقوله: ((هل يمكن أن نميز من وجهة نظر المحتوى قصيدة أو رواية أو نصا أدبيا عن كتاب في السياسة أو الفلسفة؟ كلا. فبحوثنا في علم الدلالة تثبت أنه لا يمكن أن نحدد الأدب بتحديد خصوصية محتواه.))[38]

إن الاعتراف بالعجز عن التوصل إلى اكتشاف أدبية النص عن طريق تحديد موضوعه، أو محتواه حسب تعبير غريماس، هو البداية للتأسيس لمنهج نقدي سويّ وفعال، وهذا المنهج . في رأينا . هو المنهج الذي ينطلق من استكشاف موضوعاتية النص الأدبي وتحديدها، لأن هذه الموضوعاتية هي الخلية التي كونت العالم الجمالي

المنارة للاستشارات

للنص، مما يجعل اكتشاف تعديلاتها عبر النص هو اكتشاف للبناء الذي سلكه النص في نموه المستمر، من بداية تكونه إلى مرحلة استوائه واكتماله.

وحتى لا نبقي مفهوم الموضوع في مستوى "قلة الوضوح"، نحاول القيام فيما يأتي من البحث، بتحديد مفهوم "الموضوعاتية" الذي كثيرا ما يقع الالتباس بينه وبين مفهوم الموضوع، يصل أحيانا إلى عدم التمييز بينهما أصلا.

4 . الموضوعاتية (La Thématique):

لم يلق مصطلح "الموضوعاتية" اهتماما كافيا في معاجم اللغة والنقد، وعلى العكس من ذلك، عرف مصطلح الموضوع . حسب ما مر بنا . قدرا هاما من البحث والدرس والتعريف. والسبب الذي يقف وراء هذا النقص، في رأينا، هو حداثة المنهج الموضوعاتي نفسه في الساحة النقدية، ومن ثم حداثة الدلالة التي اكتسبها. فنظرة متفحصة في معاجم اللغة ومعاجم النقد الأدبي تجعلنا نتأكد من قلة هذا الاهتمام، إذ لا تذهب هذه المعاجم في أحسن الحالات إلى أبعد من الإشارة إلى كون الموضوعاتية منهجا نقديا يتزعمه ج. ب. ريشار. ثم تقف عند هذا الناقد دون أن تتعداه إلى ذكر غيره من النقاد الموضوعاتيين إلا نادرا.

فقد جاء في "قاموس لاروس الموسوعي": ((موضوعاتية: نقد موضوعاتي، الدراسة النقدية للموضوعات الثابتة في عمل أدبي أو عند كاتب.))[39] وورد في "قاموس لاروس الصغير" التعريف الآتي: ((المضوعاتية صفة للموضوع، وتعني ما ينتظم حول الموضوع. النقد الموضوعاتي، هو طريقة للقراءة النقدية، يرمي عن طريق دراسة الثوابت الموضوعاتية ومحاورة بعض الجزئيات، إلى التعرف على انسجام العالم الخيالي الفني، وعلى الانشغال العميق للكاتب.))[40] أما "قاموس روبير الصغير للغة الفرنسية" فورد فيه التعريف الآتي: ((الموضوعاتية؛ في الأدب؛ تعني النقد الموضوعاتي الذي يرتبط بحضور موضوعات ثابتة في العمل الأدبي، وهي منحدرة من تجارب الطفولة.))[41]

المنارة للاستشارات

نلاحظ أن هذه التعريفات في جملتها لا تقدم صورة دقيقة عن مفهوم الموضوعاتية، أو النقد الموضوعاتي؛ ذلك بسبب ميلها الشديد نحو الاختصار، وبسبب عدم تمييزها بوضوح أيضا بين مفهوم الموضوع ومفهوم الموضوعاتية، كما هو الحال في التعريف الذي جاء في قاموس لاروس الموسوعي الذي يقدم النقد الموضوعاتي على أنه "الدراسة النقدية للموضوعات الثابتة". فدراسة الموضوعات سواء كانت "ثابتة" أم "متغيرة"، ليست هي مهمة النقد الموضوعاتي؛ كما أن الموضوعاتية في النقد الموضوعاتي ليست أبدا صفة للموضوع حسب ما ذهب إليه لاروس الصغير. ثم إن ما جاء فيه من أن هذا النقد "يرمي إلى دراسة الثوابت الموضوعاتية"، ليس تعريفا للموضوعاتية نفسها، بقدر ما هو إشارة إلى وجود ثوابت ومتغيرات في الموضوعاتية؛ وهذا بدوره مفهوم غير دقيق، لأن المعروف عن الموضوعاتية أنها تدخل على نفسها باستمرار تعديلات (Modulations) تمكنها من بناء مشاهد النص، الواحد بعد الآخر، حتى يكتمل البناء باكتمال النص.

وتصلح بعض هذه الملاحظات أيضا لما جاء في قاموس روبير الصغير للغة الفرنسية الذي يربط بين النقد الموضوعاتي والموضوعات الثابتة في النص الأدبي. فهذا الجزء من التعريف الذي ورد فيه يعني بكل وضوح أن النقد الموضوعاتي يقوم بدراسة الموضوعات؛ وهو مفهوم قد ذكرنا قبل الآن أنه يصرف الدراسة الموضوعاتية عن مجالها الحقيقي، الذي هو دراسة موضوعاتية النص من خلال تحديدها، ثم تتبع تعديلاتها المستمرة والمتنوعة عبر النص.

ولعل التعريف الطويل الذي ورد في "معجم آداب اللغة الفرنسية" هو أهم تعريف تقدمه المعاجم الفرنسية للموضوعاتية، إذ جاء فيه: ((ما بين الدراسات التقليدية لتاريخ الأدب التي تركز على السلسلة المنطقية في البحث، أي البيئة، الإنسان، والإنتاج؛ والتيارات الشكلانية أو البنيوية المهتمة بالنصوص المتميزة لاستخراج القوانين التي تحتل الصدارة في بناء الأعمال؛ بين هذين الاتجاهين يقف النقد الموضوعاتي ليفتح طريقا ثالثا يدرس فيه: الصور، الأفكار، والعلاقات الشكلية

المنارة للاستشارات

والدلالية في الآن نفسه، التي تتكرر في نص ما، أو مجموعة من النصوص، والتي يعتقد أنها أساسية لفهم تلك النصوص أو شرحها. ولهذا السبب سميت "موضوعات". ويكون الموضوع في هذا النقد كالخلية الأصلية، أو المصدر الأول الذي تتوالد منه خطوط وملامح متعددة ومتنوعة، تبدو متباينة ومتباعدة عن بعضها، ولكن التعرف على أضوائها وألوانها، يسمح بالكشف عن أصلها العائلي المشترك الذي تستمد منه جميعا وجودها.))[42]

تعود أهمية هذا التعريف الذي وضعه "معجم آداب اللغة الفرنسية" للنقد الموضوعاتي، إلى كونه يتفق مع التعريفات التي يعطيها له رواده بغاية التأسيس لهذا المنهج وتحديد إجراءاته وتطويرها.

نستخلص من جملة هذه التعريفات المتنوعة . وبالخصوص ما ورد في معجم آداب اللغة الفرنسية . أن الموضوعاتية هي سلسلة التعديلات والتحولات التي تصنعها نواة النص مشكلة تفاصيل المشاهد الفنية للنص، والتي يكوّن مجموعها في الأخير البناء الكلي لعالم النص الأدبي؛ وهذه النواة يمكن أن تكون مشهدا، حدثا، كلمة، صوتا، أو غير ذلك. فإذا أخذنا الشجرة كمثال على ذلك، فهي بمظهرها الشمولي، تتكون من الأقسام الآتية: الجذور، الجذع، الأغصان، الأوراق، الأزهار، والثمار. وهذه الأقسام تبدو مختلفة عن بعضها من حيث الشكل، ومن حيث مظهر المادة التي تكوّنها؛ ولكن هذا الاختلاف مع ذلك ينبع من مصدر واحد، بل إن كل جزء من هذه الأقسام التي تبدو مختلفة عن بعضها، هو جزء جوهري في تكوين هذا المصدر، والذي هو النواة الواحدة "الصغيرة" التي أعطت الشجرة "الكبيرة". وكذلك الأمر في النص الأدبي، فالنواة فيه واحدة، تدخل عليها تعديلات باستمرار تجعل كل مشهد يبدو مختلفا عن غيره من المشاهد الأخرى التي تدخل في تكوين النص من جهة، ويبدو أيضا مختلفا عن النواة، التي هي الموضوعاتية التي تشكل المشهد الأصلي للنص من جهة أخرى؛ وذلك برغم أن جميع التعديلات تشترك مع بعضها بعضا في

المنارة للاستشارات

خصائص معينة، وتشترك أيضا مع النواة في تلك الخصائص نفسها، وتبقى جميعها محافظة على تلك الخصائص على امتداد النص.

من هنا نرى بوضوح اختلاف الموضوعاتية عن الموضوع، فبينما يعبر الموضوع عن فكرة اجتماعية، سياسية، فلسفية، أو غيرها، والتي تقوم شخصيات فنية بتجسيدها في المجال الأدبي، ضمن إطار زماني ومكاني معين، مما يجعل التوصل إلى تصور تلك الفكرة أو الأفكار بصفتها معاني متجانسة لها بداية هي النقطة "أ"، ونهاية هي النقطة "ب"، أمرا ممكنا؛ نجد الموضوعاتية تفتقد إلى هذه الحدود الواضحة التي تمكن من تصنيفها في مجال معين من مجالات الحياة الفكرية أو الاجتماعية. ذلك لأن الموضوعاتية هي العنصر الذي ينطلق منه التجسيد الأدبي لموضوع النص أو لموضوعاته، حيث تستمر الموضوعاتية صانعة هذا التجسيد في النص الأدبي عبر تعديلاتها (Modulations) أو تنويعاتها الكثيرة، متخذة دور الخلية أو النواة التي تنقسم لتخلق الكائن الحي، ثم تستمر في التوالد والانقسام والنمو والتطور صانعة أجزاءه وتفاصيله وكيانه النهائي.

فالموضوعاتية تعيش في كامل النص الأدبي، بل كثيرا ما تحيا في جميع أعمال الكاتب الواحد، ببنيات فنية متنوعة وموضوعات مختلفة؛ ذلك لأنه مادامت تصدر عن مؤلف واحد، فهي ترتبط فيما بينها بعلاقات فنية قوية وعميقة، كقوة وعمق علاقات الدم التي تربط بين الإخوة. ومن هنا ندرك مدى صدق كثير من الأدباء حين يصرحون بأنهم مهما تعددت أعمالهم الإبداعية وتنوعت، فهم لا يكتبون في نهاية الأمر سوى عمل إبداعي واحد.

5 . النقد الموضوعاتي:

قام "رامان سلدن" بمحاولة تعريف المنهج الموضوعاتي، انطلاقا من أعمال من يطلق عليهم نقاد "مدرسة جينيف"؛ إلاّ أن الطابع الشامل والعام للتعريف الذي قدمه جعله غير فعال، وغير قادر على تمكين القارئ من بناء تصور واضح ودقيق حول هذا المنهج؛ وهذا قوله: ((نقاد جينيف أو نقاد الوعي أو المدخل الوجودي .

المنارة للاستشارات

الأنطولوجي، كلها تسميات أطلقت على النقد الذي كتبه ميشيل ريمون، وألبير بيجوين بوليه، في المرحلة الأولى، وجان بيار ريشار، وجان ستاروبنسكي، وهيلز ميلر، في المرحلة الثانية. وهي مدرسة ترفض النزعة الشكلية، بحثا عن قراءة للتجربة الداخلية التي ينطوي عليها النص والتي لا تتكشف إلاّ من خلال الاتحاد الوجداني بين النقاد واللاشعور النصي، وذلك كله بحثا عن ما يسمى تجربة المؤلف التي يوصلها النص، أو الوعي الفاعل للكاتب لحظة الخلق.))[43]

وإذا استثنينا اسم جان بيار ريشار من بين أسماء النقاد الموضوعاتيين الذين تناولهم هذا التعريف فإننا نرى أن إنجازاتهم النقدية الموضوعاتية هي إنجازات متواضعة أمام ما أنجزه النقاد الموضوعاتيون الآخرون، ومنهم: "جورج بولي" (Georges Poulet)، و"جان بول ويبر" (Jean-Paul Weber)، و"غاسطون باشلار" (Bachelard Gaston). أما على مستوى التوجيهات الفكرية التي تشكل قاعدة يستمد منها المنهج الموضوعاتي إجراءاته العملية، فقد اكتفى هذا التعريف منها بذكر التوجه النفسي فقط حين رأى أن هذا المنهج يقوم بالبحث عن تجربة المؤلف: ((التي لا تتكشف إلاّ من خلال الاتحاد الوجداني بين النقاد واللاشعور النصي)). وهذا التوجه هو الذي سارت عليه أعمال "شارل مورون" (Charles Mauron) بصفة خاصة؛ وتلتقي عنده أيضا دعوة كل من ج. ب. ريشار وجورج بولى، فالأول يرى ضرورة حلول الناقد في النص المنقود، أما الثاني فمن خلال ما يوليه من أهمية لالتحام الناقد بالنص حتى يتمكن من إدراك طبيعة وعي مؤلف النص بعنصري الزمان والمكان، ومن ثم وعيه بالعالم الذي يعيش فيه.

ولكن مع هذا، يبقى ذلك التوجه النفسي الذي نجده عند بعض النقاد الموضوعاتيين مجرد توجه عام وثانوي يشكل الحدود التي يلتقي عندها المنهجان وينفصلان عن بعضهما بعضا في الوقت نفسه؛ وهذا ما يحدده ج. ب. ريشار بمصطلح "الحلولية"[44]. أما النقد الأدبي القائم على التحليل النفسي، فأغلب النقاد

المنارة للاستشارات

الموضوعاتيين يؤكدون على اختلاف المنهجين، دون أن ينكروا أهمية استفادة المناهج النقدية من بعضها بعضا.

وفي النهاية نخلص إلى أنه برغم كون المصدر اللغوي لمصطلح "الموضوعاتية" هو مادة "وضع"، فإن مفهوم هذا المصطلح مختلف عن معاني هذه المادة الأصلية التي يرتبط بها. فبينما يتعلق الأمر في الموضوع بالمادة التي يتناولها الفكر بالتحليل والدراسة والمناقشة، فإن الموضوعاتية هي النواة أو الخلية الأساسية التي تلد النص أو تخلقه بفضل نموها وتوسعها على أساس تعديلاتها المتتابعة حتى يبلغ النص تمام خلقته واكتماله. ومن هنا وجب على النقد الأدبي أن يعي هذا الاختلاف، فيتعامل مع المصطلحين بحسب ما تقتضيه طبيعة كل منهما.

الهوامش

1 . الموضوعية هنا من الموضوع، ولها دلالة تختلف عن دلالة الموضوعاتية.

2 . غالب هلسا، مقدمة ضمن كتاب غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الخامسة، المؤسسة الجامعية، بيروت2000 ، ص08.

3 . عبد الكريم حسن، الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية، بيروت 1983، ص32.

4 . نفسه، ص34.

5 . جان بيار ريشار، مقدمة كتابه، العالم التخيلي لمالارمي، ترجمة سعيد علوش، ضمن كتابه، النقد الموضوعاتي، مطبعة بابل، المغرب (د.ت.)، ص 131.

6 . رولان بارت، حوار أجراه معه فؤاد أبو منصور ضمنه كتابه، النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأروبا، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت1985، ص288.

7 . ذكره عبد الكريم حسن ضمن كتاب، الموضوعية البنيوية... ، ص35.

8 . عبد الكريم حسن، الموضوعية البنيوية... ، ص31.

المنارة للاستشارات

9 . مسعودة لعريط، قصص الأطفال في الجزائر: دراسة موضوعاتية، رسالة ماجستير قدمت للمناقشة خلال السنة الجامعية: 1996 . 1997 بجامعة عنابة. وقد اطلعنا عليها في شكل مخطوط بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة مولود معمري بتيزي وزو. وكمثال على التقاء هذه الرسالة بكتاب عبد الكريم حسن وسيرها على منواله: تنظر الصفحة 50 حيث تؤكد على ارتباط الموضوعاتية بالبنيوية، على غرار ما ذهب إليه عبد الكريم حسن، الذي فتح الطريق بذلك أمام غيره. وتنظر الصفحة 64 حيث تشرح الطريقة التي اتبعتها لتحديد الموضوع الرئيسي والموضوعات الفرعية، وهي طريقة لا تختلف أيضا عن تلك التي نادى إليها عبد الكريم حسن في كتابه. وليس ذلك كله بالموضوعاتية.

10 . ترجمة محمد آيت لعميم، مجلة المدى، العدد 18، دمشق 1997. وقد نشرت مجلة الآداب الأجنبية التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب في عددها 93 وفي السنة نفسها هذه الدراسة بترجمة غسان السيد.

11 . مجلة اللغة والأدب، العدد 11، الجزائر 1997.

12 . مجلة الموقف الأدبي، العدد 356، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001.

13 . أنجزنا كتابا حول النقد الموضوعاتي بعنوان "المنهج الموضوعاتي . أسسه وإجراءاته"، وهو ينتظر فرصة للنشر.

14 . ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثامن، مادة "وضع"، دار صادر بيروت، ص401.

15 . نفسه، ص401.

16 . بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، مطابع تيبو براس 1993، ص974.

17 . جبران مسعود، الرائد: معجم لغوي عصري، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت 1992، ص781.

18 . جبور عبد النور، المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين1979، ص272.

19 . جبور عبد النور، معجم عبد النور المفصل: عربي فرنسي، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت (د.ت.)، ص1835.

20 . رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، الجزائر2000، ص237.

21 - Voir, A. G. Greimas, J.Courtes « Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage », tome2, Hachette , Paris1986, P.236 - 237.

المنارة للاستشارات

22 . وردت بعض هذه المعاني تحت مادة "وضع" في جملة أخرى من المعاجم العربية الحديثة، فجاء في معجم "الوافي" لعبد الله البستاني قوله: "الموضوع: المادة التي يبني عليها الخطيب أو الواعظ كلامه." ثم كرر هذا المعنى حرفيا في معجمه "البستان"، وهو تعريف قد أسقط منه المناظرة أو الحديث، وكذا المادة موضوع البحث العلمي. وجاء في "المعجم الوسيط": "الموضوع: المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه." فكلمة "المتكلم" يدخل تحتها الخطيب والواعظ والمتناظرون. ويدخل تحت كلمة "الكاتب" أصناف العلماء والأدباء، وكل من يشتغل بالكتابة للتعبير عن المادة التي يشتغل عليها فكره. ينظر على التوالي: عبد الله البستاني، "معجم الوفي"، مكتبة لبنان1990، ص708وعبد الله البستاني، البستان: معجم لغوي مطول، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان1992، ص1234وجماعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، الجزء الأول، مادة "وضع"، دار العودة، مجمع اللغة العربية، مصر .

23 - Voir, Le Robert: dictionnaire historique de la langue française, Paris 1992, P.2114.

24 - Petit Rober: dictionnaire de la langue française, Paris 1992, P.1957.

25 - Dictionnaire de la langue française, Paris 1993, P.1262.

26 - Dictionnaire Encyclopédique, Quillet, Paris, Edition 1979, P.6867.

27 - Le Petit Larousse, Paris 1998, P.1006.

28- Voir, Dictionnaire Encyclopédique Larousse, Volume 1, Paris 1994, P.1006.

29 . ج. ب. براون و ج. يول، تحليل الخطاب، ترجمة لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض 1997، ص85.

30 . ج.ب. براون و ج. يول "تحليل الخطاب"، ص91.

31 . نفسه، ص86.

32 . ج. ب. براون و ج. يول، "تحليل الخطاب"، ص115.

33 . نفسه، ص85.

34 . نفسه، ص91. وحتى نقف على الصعوبة التي تلازم كل محاولة لتحديد موضوع أي خطاب نستعرض هذين المثالين اللذين أوردهما المؤلفان في كتابهما المذكور، حيث جاء فيه:

"1 . ما كان يثير الاهتمام أن رتشارد الصغير رجع من مدرسته في "تورنتو" ومعه حصيلته من دعابات "نيوفي" التي تماثل في مضمونها . مضمونها الحقيقي . تلك الدعابات حول الإيرلنديين التي كان ابني يرويها عند عودته إلى البيت من المدارس في أدنبره.

المنارة للاستشارات

2 . وكذلك هو يستطيع، لكن أهم شيء في هذا النظام هو مقدار الضغط الذي يسلطه على اللاعبين الآخرين."

ثم يعلق المؤلفان على هذا بقولهما: "فما الموضوع في المثال الأول؟ أهو "ريتشارد الصغير" أم "مدرسته في تورنتو"؟ أم "دعابات "نيوفي" التي يرويها؟ وهل الموضوع في المثال الثاني "هو"؟ أم "هذا النظام"؟ أم "اللاعبون الآخرون"؟ وأمام صعوبة اختيار إجابتين من جملة هذه الإجابات الممكنة يرى الباحثان ضرورة الاستعانة بالسياقين الداخلي والخارجي اللذين ورد فيهما كل نص من النصين، قبل محاولة القيام بتحديد موضوع كل واحد منهما. تنظر الصفحتان 99 . 100.

35 . ميشال كولو "الموضوع من منظور النقد الموضوعاتي"، ترجمة غسان السيد، مجلة الآداب الأجنبية، العدد93، دمشق 1997، ص37.

36 . ستيفان مالارمي شاعر فرنسي مشهور، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1842 . 1898).

37 . ينظر، عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعاتي، الطبعة الثانية، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق1996، ص75 . 74.

38 . ينظر، عبد الكريم حسن، الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب، ص13.

39 - Dictionnaire Encyclopédique Larousse, P.1006.

40 - Le Petit Larousse, Paris 1998, P.1006.

41 - Petit Rober: dictionnaire de la langue française, P.1957.

42- Dictionnaire des littératures de la langue française ; Vol. P-Z, Bordas, Paris1984 , P.2297.

43 . رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (د.ت.)، هامش، ص170.

44 . يرى جان بيار ريشار أن الحلولية تعني قراءة النص من الداخل، قائلا: ((إن على نص ما أن يقرأ من الداخل حتى يستوعب. فالنقد الأكثر "موضوعاتية" لا يجتنب هذه الضرورة.))، دون أن يؤدي هذا "الحلول في النص" إلى قطع الصلة كلية بالظروف الخارجية. ج. ب. ريشار، مقدمة «العالم التخيلي... »، ترجمة، سعيد علوش، ضمن كتابه، النقد الموضوعاتي، مطبعة بابل، المغرب (د.ت.). ص142.

المنارة للاستشارات